من أقاصيص الأولين

عرض : د. محمد أحمد خلف الله

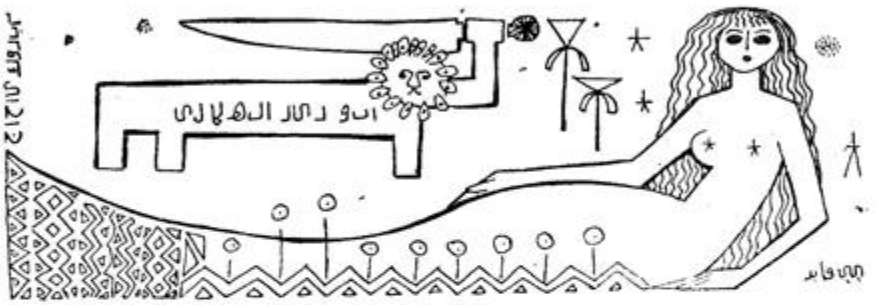

•• قالت جميلة : ـ حدثتني بثينة ، وكانت صدوقة اللسان جميلة الوجه حسنة البيان عفيفة البطن والفرج .

قالت : ـ والله ما أرادني جميل رحمة الله عليه بريبة قط ، ولا حدثت أنا نفسي بذلك منه . وان الحي انتجعوا موضعا ، واني لفي هودج لي أسير اذا أنا بهاتف ينشد أبياتا ، فلم أتمالك أن رسيت بنفسي وأهل الحي ينظرون ، فبقيت أطلب المنشد فلم أقف عليه ، فناديت : أيها الهاتف بشعر جميل ما وراءك منه ؟ وأنا أحسبه قد مضى تحبه ومضى لسبيله ، فلم يجبني مجيب ، فناديت ثلاثا ، وفي كل ذلك لا يرد على أحد شيئا .

فقال صواحباتي : ـ أصابك يا بثينة طائف من الشيطان ؟ .

فقلت : ـ كلا ، لقد سمعت قائلا يقول .

قلن : ـ نحن معك ولم نسمع .

فرجعت فركبت مطيتي وأنا حسيرى والهة العقل كاسفة البال ، ثم سرنا . فلما كان في الليل اذا ذلك الهاتف يهتف بشعر جميل . ذلك الشعر بعينه ، فرميت بنفسي وسعيت الى الصوت ، فلما قربت منه انقطع .

فقلت : ـ أيها الهاتف ، ارحم حيرتي وسكن عبرتي بخبر هذه الأبيات ، فان لها شأنا ، فلم يرد علي شيئا . فرجعت الى رحلي فركبت وسرت وأنا ذاهبة العقل ، وفي كل ذلك لا يخبرني صواحباتي انهن سمعن شيئا .

فلما كانت الليلة القابلة نزلنا وأخذ الحي مضاجعهم ونامت كل عيني ، فاذا الهاتف يهتف بي ويقول : ـ

يا بثينة ، اقبلي الى انبئك عما تريدين .

فأقبلت نحو الصوت ، فاذا شيخ كأن من رجال الحي ، فسألته عن اسمه ونسبه .

فقال : ـ دعي هذا وخذي فيما هو اهم عليك .

فقلت له : ـ وان هذا لما يهمني .

قال : ـ اقنعي بما قلت لك .

قلت له : انت المنشد الأبيات ؟ .

قال : نعم .

قلت : ـ فما خبر جميل ؟ .

قال : ـ نعم فارقته وقد قضى نحبه وصار الى حفرته رحمة الله عليه .

فصرخت صرخة آذنت منها الحي ، وسقطت لوجهي فأغمي علي ، فكأن صوتي لم يسمعه أحد ، وبقيت سائر ليلتي ، ثم افقت عند طلوع الفجر واهلي يطلبونني فلا يقفون على موضعي ، ورفعت صوتي بالعويل والبكاء ورجعت الى مكاني .

فقال لي اهلي : ـ ما خبرك ، وما شأنك ؟

فقصصت عليهم القصة .

فقالوا : ـ يرحم الله جميلا .

واجتمع نساء الحي وانشدتهن الأبيات فأسعدنني بالبكاء ، فأقمن كذلك لا يفارقنني ثلاثا ، وتحزن الرجال أيضا وبكوا ورثوه وقالوا كلهم : يرحمه الله فانه كان عفيفا صدوقا .

فلم أكتحل بعده بالمد ، ولا فرقت رأسي بمشط ، ولا دهنته الا من صداع خفت على بصري منه ، ولا لبست خمارا مصبوغا ولا ازارا ، ولا ازال ابكيه الى الممات .

•• لما بلغ الوليد بن يزيد بن عبد الملك أن ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد أوغر عليه الصدور ، وشرد عنه القلوب ، ونازعه رداء ملكه ساعيا في هلكه ، استوحش من بطانته واحتجب عن سماره .

وفي عشية من عشايا وحشته دعا خادما له ، وقال له : ـ

انطلق متنكرا فقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس ، فاذا رأيت كهلا رث الهيئة والملبس يمشي مشيا هونا وهو مطرق فسلم عليه ، وقل في اذنه : ان امير المؤمنين يدعوك . فان أسرع الاجابة فاثني به ، وان تلكأ او عارض واستراب فدعه واطلب غيره حتى تأتيني برجل على هذا الشرط الذي ذكرت لك .

فانطلق الخادم فأتاه برجل تنطبق عليه جميع هذه الشروط . فلما دخل الكهل على الوليد ابن يزيد حياه بتحية الخلافة وقام ، فأمره الوليد بالدنو والجلوس ، وامهله الى أن ذهبت روعته وسكن جأشه ثم اقبل عليه فقال له : ـ

أتحسن مسامرة الخلفاء ؟ .

فقال الكهل : ـ نعم أحسنها يا أمير المؤمنين .

فقال له الوليد : ـ ان كنت تحسن المسامرة فأخبرنا عنها ما هي ؟ .

فقال الكهل : ـ المسامرة أخبار لمنصت ، وانصات لمخبر ، ومفاوضة فيما يعجب ويليق .

فقال له الوليد : ـ أحسنت أيها الرجل لا أزيدك امتحانا ، فقل لنصت لقولك .

فقال الكهل : ـ يا أمير المؤمنين . ان المسامرة صنفان لا ثالث لهما . أحدهما اخبار بما يوافق خبرا مسموعا ، والثاني اخبار بما يوافق خبرا مقترحا . واني لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين حديثا فأحدوا على مثاله ، ولا اقترح على أمير المؤمنين سلوك طريقة فأنحو نحوها وألزم أسلوبها .

فقال له الوليد : ـ صدقت وها نحن نقترح عليك ونرسم لك رسما لتقتفيه . انا قد بلغنا أن رجلا من رعيتنـــا سعى فيما يصم ملكنا فأثر سعيه وشق ذلك علينا وبلغ منا ، فهل نمى ذلك الى علمـــك ؟ .

فقال الكهل : نعم .

فقال الوليـــد : ـ قل الآن على حسب ما نمى اليـــك منـــه ، وعلى حسب ما ترضى من من التدبير فيـــه .

فقال الكهل : ـ يا أمير المؤمنين انه بلغني أن أمير المؤمنين عبـــد الملك بن مروان لما ندب الناس لقتال عبد الله بن الزبير ، وخرج بهم متوجهـا الى مكة حرسها الله تعالى ، استصحب عمرو بن سعيد ابن العاص وكان عمرو بن سعيد قد انطوى على دغل نية ، وفساد طوية ، وطماعية في نيل الخلافة . وكان أمير المؤمنين عبـــد الملك بن مروان قد فطن لذلك الا أنه كان يبقي عليـــه لتأكد حرمتـــه وأواصر رحمـــــه .

فلما فصل أمير المؤمنين عن دمشق وسار عنها أياما واستمر به السير ، تمارض عمرو بن سعيد واستأذن أمير المؤمنين عبد الملك في العود الى دمشق فأذن له .

فلما دخل عمرو بن ســـعيد دمشق صعد المنبر فخطب النـــاس خطبة نال فيها من الخليفـــة ودعا النـــاس الى خلعه ، فأجابوه الى ذلك وبايعوه ، فاستولى على دمشق وحصن سورها وحمى عورتها وسد ثغورها وبذل الرغائب .

بلغ ذلك عبد الملك بن مروان وهو متوجه الى ابن الزبير ، وبلغـــه مع ذلك أن والي حمص قد نزع يده من الطاعة ، وأن الثغور قد تشوفوا للخلاف عليه ، فخرج على وزرائه وبيده مخصرة يضرب بها عطفه ، فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم : ـ

هـــذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد . وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق ومصر واليمن وخراسان . وهذا النعمان بن بشير أمير حمص ، وزفر بن الحارث أمير نسرين ، ونائل بن قيس أمير فلسطين ، قد نزعوا أيديهم من الطاعة وبايعوا الناس لابن الزبير ، وقد تشوف أهل الثغور للخلاف . وهذه المضربة سيوفها على عواتقها تطالبنا بقتلي المرج .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم وعلموا أن لا مفر فنكسوا رؤوسهم ولم ينطقوا .

فقال لهم عبد الملك : ـ لم لا تنطقون ؟ أحضروا غناءكم فهذا وقت الحاجة اليكم .

فقال له أفضلهم : ـ أي غنـــاء عندنا في هذا . وددت والله أني كنت حرباء على عود من أشجار تهامه حتى تنقضي هذه الفتن .

قال الكهل : ـ فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه علم ان لا غنى عند وزرائه ، فقام عنهم ، وأمرهم بلزوم موضعهم ، وركب من قوره منفردا ، وأمر جماعة كثيفة من شجعان قومه وفرسانهم ان يركبوا فى السلاح ويتبعوه مبتعدين منه بحيث يرون اشارته ان أشار لهم .

سار عبد الملك واتبعه القوم على ما رسم لهم ، فلم يزل سائرا حتى انتهى الى شيخ كبير السن ضعيف الجسم سيىء الحال وهو يجمع السماق . فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديث خفيف ثم قال له : ـ

ايها الشيخ . الك علم بمنزل هذا العسكر ؟ .

فقال الشيخ : ـ بلغنى انهم نزلوا بموضع كذا .

فقال عبد الملك : ـ هل سمعت شيئا مما يقول الناس فى أمره ؟ .

فقال الشيخ : ـ ما سؤالك عنه ؟ .

فقال عبد الملك : ـ انى أردت اللحاق به والدخول فى أصحابه والتعرض للحظوة عنده .

فقال الشيخ : ـ انى أراك اريبا وضيا ، وأحسبك حسيبا سريا ، فهل تحب ان انصح لك فيما انت قاصده ؟ .

فقال عبد الملك : ـ ما أحوجنى الى ما تقول .

فقال الشيخ : ـ انه ينبغى لك ان تصرف نفسك عن هذا الامر الذى ترغب اليه فان الامير الذى انت قاصده قد انحلت عرى ملكه وتابذه أتباعه واضطربت أموره ، وان السلطان فى حال اضطراب أموره كالبحر فى حال هيجانه لا ينبغى أن يقرب .

فقال عبد الملك : ـ أيها الشيخ . ان الحنكة لم تبلغ بى مغالبة نفسى فى كل ما ترغب اليه ، وانى أجدها تنزع الى صحبة هذا الامير نزاعا شديدا ، ولابد لى من ذلك ، فهل لك أن تحسن الى فتخبرنى بما تراه من الرأى لهذا الامير فى تدبير هذه الخطوب التى دهمته لأعرض ذلك الرأى عليه ، واتفق به عنده ، فلعله أن يكون سببا لقربى منه .

فقال الشيخ : ان حكمة الله وعزته ليقضيان بحجب العقول والآراء عن النفوذ فى بعض النوازل التى لا تنفذ فيها العقول ولا يهتدى الى صواب تدبيرها الرأى ، وانى أكره ان ارد مسألتك بالخيبة فها أنا أقول فيما سألتنى قولا أقضى به حق رغبتك وان كنت لا اثق بنفسى فيه لان الخطب عظيم جدا ، والخطر فيه يضاهى عظمه .

فقال له عبد الملك : ـ قل جزاك الله خيرا فانى لارجو ان يسردك الله ، ويرشدنى بك الى الصلاح .

فقال الشيخ : ـ ان هذا الخليفة خرج لمحاربة عدوه فظهر من مشيئة الله سبحانه أنه لا يريد ما قصده . والدليل على أن الله لم يرد قصده لمحاربة ابن الزبير انه قطعة عن التمادى بما أحدثه فى دار ملكه من وثوب عمرو بن سعيد على منبره ، واستفساده لرعيته ، واستيلائه على بيوت أمواله وسرير خلافته . وانى مشير عليك بتفقد حال هذا الامير وانتظار ما يكون منه فان رأيته قد تمادى فيما خرج له واصر على قصد ابن الزبير فأعلم انه مخذول فاجتنبه ـ وانما كان مخذولا لان الله سبحانه وتعالى قد اظهر فى حكمه أمرا يقطعه عن التمادى لما خرج له ، فأبى الا لجاجه . وان رأيته قد رجع من حيث جاء ، وترك ما كان قصد له وخرج فى طلبه ، فارج له السلامة لانه مستقيل ـ والله سبحانه اهل ان يقبل من استقاله ويرحم من يرجع اليه .

فقال له عبد الملك : ـ يا شيخ . وهل رجوعه الى دمشق الا كمسيره الى ابن الزبير ؟ اذ كان قد ظهر من حكمة الله تعالى ومشيئته ان قبض عنه قلوب رعيته الذين بدمشق عن موالاته ، وبسط أيديهم بالبيعة لغيره ، فمصيره الى ابن الزبير كرجوعه الى عمرو بن سعيد لان كل واحد منهما حاصل على مملكة منيعة ، ورعية مطيعة ؟ ..

فقال الشيخ : ـ ان الذى أشكل عليك لواضح بين ، وها انا أزيل اللبس عنك . ان عبد الملك اذا قصد ابن الزبير كان فى صورة ظالم لان ابن الزبير لم يعطه طاعة قط ، ولا وثب له على مملكة . وهو اذا قصد عمرو بن سعيد كان فى صورة مظلوم لان عمرو بن سعيد نكث ببيعته وخان أمانته وأفسد رعيته وحملهم على النكث والغدر ، ووثب على دار ملك لم يكن له ولا لأبيه بل كان لعبد الملك ولأبيه من قبله . وعمرو بن سعيد عليه معتد وله مغتصب ـ وانه كان يقال سمين الغصب مهزول ، ووالى الغـــدر ممزول .

وقد كان عبد الملك فى مخرجه الى محاربة ابن الزبير عاملا فيما يريد به عز عمرو بن سعيد ، وبقاء الملك فى اهل بيتـــه . فلما سمع ما ضربه الشيخ من المثل ، واستبصر فيما أودعه من الحكم سر بذلك سرورا شديدا ثم اقبل على الشيخ فقال : ـ

جزيت خيرا فقـــد عظمت يدك عنـدى وانى لأوثر ان تجعل بينى وبينك موعدا وتذكر مكانك لالقاك به بعد يومى هـــذا .

فقال الشيخ : ـ فما الذى تريد بذلك .

فقال عبد الملك : ـ انى أؤمل ان أنتفع برايك عند الأمير وأكافئك على ما كان منك .

فقال الشيخ : ـ انى اعطيت الله تعالى عهدا ألا أتحمل منة لبخيل .

فقال له عبد الملك : ـ ومن اين علمت بخلى ؟ .

فقال الشيخ : ـ كيف لا اعلم بخلك وقد ارجأت صـــلتى ومكافأتى مع القدرة على تعجيلها . فما عليك لو وصلتنى ببعض ما ترى عليك من السلاح والبزة السنية ؟ .

فقال له عبد الملك : ـ اقسم بالله لقد ذهلت . ثم نزع سيفه فقال : اقبل منى سيفى هـــذا ولا تخدع عنه فان قيمته عشرون ألف درهم .

فقال الشيخ : ـ انى لا اقبل صلة ذاهل . فدعنى وربى الذى لا يبخل ولا يذهل فهو حسبى .

فلما سمع عبد الملك مقالته علم فضله فى دينه وقال له : ـ

انى انا عبد الملك فاعتمدنى وارفع الى حوائجك .

فقال الشيخ : ـ وانا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا الى من انا وانت له عبدان .

فانطلق عبد الملك فعمل برأى الشيخ فأنجح .

فلما سمع الوليد ما اخبره به ذلك الكهل استرجع عقله واستظرف ادبه وسأله عن نفسه . فتسمى له وانتسب . فلم يعرفه الوليد واستحيا منه .

ثم قال الوليد : ـ ان من جهل مثلك من رعيته لمضيع

فقال له الكهل : ـ يا أمير المؤمنين . ان الملوك لا تعرف الا من تعرف اليها ، ولزم ابوابها .

فقال الوليـــد : ـ كلا والله فلا توســـعنا عذرا لا نستحقه . فأمر له بصلة معجلة ، وعهد اليه فى ملازمة بابه عهدا . فكان يسمع من أدبه وحكمته الى ان كان من أمر الوليد ما هو مشهور .